رجال غيروا وجه التاريخ الإنسانى

صفوة النابهين

فى محراب الحكمة

فلسفة الزهد والزاهدين

• عبد الله بن عمر •

obeikandl.com

obeikandl.com

أكثر من أربعين عاما، مرت بين حدثين، لكل منهما معنى ومغزى، يسريان فى أوصال الحياة، ولكل منهما دروس مستفادة، ورسالة تقترب من تحرير البشرية من وثنية الضمير، أو تحرير النفس البشرية الرازحة تحت أغلال المادة والمنفعية وعورات الجاهلية، ولكل منهما شواهد على القدرة النفسية الهائلة لرجل تتألق ذكراه فى كتب السيرة والتاريخ..

الحدث الأول: حين بدأت خيوط النور تسرى فى أنحاء مكة على استحياء، هامسة، تبشر بالدعوة للإسلام، كان فتى فى الثانية عشرة من عمره ـ أو أقل قليلا ـ قد اهتدى إلى مشارف النور، يسعى إليه عقله وقلبه، ولا يلقى بالا لأجواء المخاطرة التى تحيط بصاحب الدعوة ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومن معه من أصحابه السابقين الأولين ،وكان الفتى شديد التشبث باقتناعه، وممعن فى الإصرار على أن يكون من كتائب الحق التى تنصر رسول الله، وهو يرى سادة قومه يسارعون إلى الدين الجديد، ومن بينهم والده "الفاروق عمر" وعمه "الفارس العملاق "زيد ابن الخطاب، وتمضى شهور قليلة، وإذا بالفتى أحد المهاجرين الأوائل إلى المدينة، ثم كانت متابعته خطى الرسول، وبتقليد ومحاكاة تبهر الألباب، ينظر ماذا كان الرسول ﷺ يفعل فى كل أمر، فيحاكيه بدقة..

الحدث الثانى: فى ذات يوم، والمدينة ساكنة هادئة، وقد استقامت للمسلمين حياتهم، والقرآن هو المؤثر الأول فى هذا كله، وكانوا يقرأونه أو يقرأ عليهم، فيملأ نفوسهم روعة، وقلوبهم إيمانا، وكانت خطوات رجل من الصحابة أكثر هدوءا وهو يسعى داخل السوق متجولا لشأن خاص به، ولكنه يتوقف فجأة والدهشة تملك عليه نفسه، وهو يتابع

الصحابى الجليل عبد الله بن عمر بن الخطاب يشترى لراحلته علفا نسيئة ـ أى بالدين ـ فاقترب "أيوب بن وائل الراسبى" أكثر وهو يراقب، حتى يتيقن من الواقعة التى أذهلت عقله، وهو يعلم تماما أن ابن عمر رضي الله عنه من ذوى الدخول الرغيدة الحسنة ،فقد كان تاجرا ناجحا شطر حياته، وكان راتبه من بيت المال وفيرا !! فيذهب "أيوب بن وائل "إلى أهل بيت عبد الله بن عمر ويسألهم: أليس قد أتى لابن عمر بالأمس أربعة آلاف درهم، وقطيفة ؟! قالوا : بلى، ولكنه لم يبت بالأمس حتى فرقها جميعا، ثم أخذ القطيفة وألقاها على ظهره وخرج، ثم عاد وليست معه، فسألناه عنها، فقال : إنه وهبها لفقير !!

كيف يواجه رجل إغراءات المال الوفير بالإنفاق؟ وكيف لا يبالى الفقر؟ وأين منطق العقل يفسر ويحلل هذا الجود الواسع، حتى أن الأموال تأتيه وافرة كثيرة ولكنها تعبر داره عبورا إلى المحتاجين والفقراء؟! هل كان كرمه وجوده زهدا فى الحياة وهروبا من متع الدنيا ولذاتها؟! وإذا كانت فأية فلسفة تلك للزهد والزاهدين؟!!

نعود أولا إلى الواقعة والتى كانت ـ بكل معانيها ـ ترسم صورة رجل عكف على نفسه حتى صقلها وذكاها، رفض من الدنيا ومن متاعها كل ما يشد النفس إليها، ويوله القلب بها.. رجل ذكى الفؤاد، قويم النفس، لم يكن زهده كراهية للدنيا والحياة، ولم يكن زهده انسحابا من الدنيا، وهو الذى حمل سيفه مجاهدا مع رسول الله ﷺ ، وكان قلبه يطير شوقا للحاق بجيوش الإسلام تضرب فى مناكب الأرض، وهو التاجر الأمين الذى اتسعت حدود تجارته، وأدرت عليه أرباحا وأموالا وفيرة، وهو سمح اليد، والنفس، والخلق، فلا يسأل عن شىء إلا أعطاه

جزلان مغتبطا، وقد جاهد نفسه حتى قهرها وذللها وألزمها سيرة الرسول ﷺ وأبى بكر ووالده عمر، من الزهد والقناعة، ومن الصبر والاحتمال، ومن إيثار المسلمين على نفسه، والاكتفاء بما يقيم الأود..

....

ومن الخطأ أن نظن أن الزهد هو فلسفة انعزالية، أو سلبية، أو عزوفا عن الدنيا وأسباب الحياة ومتاعها، ولكن هى فلسفة تصوف من صحابى جليل، تشرق الحكمة والصدق من خلال كلماته.. تصوف رجل توفرت له قدرة الفيلسوف، وفطنة المؤمن، وفقه الصحابى.. فلسفة التصوف لرجل دفع الدنيا بكلتا راحتيه، كانت الدنيا تسعى إليه وتطارده بطيباتها ومغرياتها، فيدفعها براحتيه، ولا يرجو منها إلا ما يعينه على قيام الليل فى حله وترحاله.

تصوفه حركة حية فى بناء الروح..

وزهده كان خشية أن يخطئ، أو أن يمسه شيطان الزهو والغرور.. كيف؟

والإجابة هنا تطرح أمامنا رؤى ومنهاجا للحياة، ودروسا مستفادة، وتجارب النابهين من أصحاب الرسول ﷺ، ومثلا وهو من هو علما وفقها وحكمة ومصاحبة وملازمة للرسول ﷺ، وصاحب التحرى الشديد الوثيق لخطى الرسول ﷺ وسنته، ولكن كان رضي الله عنه وأرضاه، يخشى أن يضع نفسه فى موضع المفتى، كان أشد حذرا وتحوطا فى الفتيا.. وتقول كتب السيرة: قد جاءه يوما سائل يستفتيه، فلما ألقى على ابن عمر سؤاله، أجابه قائلا: لا علم لى بما تسأل عنه، وعندما ابتعد الرجل عنه، قال ابن عمر جذلان فرحا: "سئل ابن عمر عما لا

يعلم، فقال لا أعلم".

"لا علم لى بما تسأل عنه"..

عبارة موجزة من رجل هو بحر فى العلم والفقه، صادق البصيرة، عابد ورع، وكان فى مقدوره أن يجتهد ويجيب السائل، وهو يعلم أن للمخطىء فى اجتهاده أجرا، وللمصيب أجرين، ولكنه كان يخاف أن يجتهد فى فتياه.. وفى زماننا الراهن أصبحت الفتاوى على لسان كل من يحفظ الفاتحة وقصار السور.. والنتيجة خلط شديد بعد أن أصبحت الفتاوى مباحة لكل من "هب ودب "على الفضائيات!!

ولكن من مثل ابن عمر يستطيع أن يقول: "لا علم لى بما تسأل عنه"؟!

....

....

رجل فى محراب الحكمة، شديد الحذر والتحوط، حتى كان لا يروى عن رسول الله ﷺ حديثا إلا كان ذاكرا كل حروفه حرفا حرفا، لا يزيد فيه ولا ينقص منه، وبالطبع ليس زهدا، وليس من فقه التصوف عنده أن يخاف أن يجتهد فى فتياه، ولكن الخشية والحذر والزهد معا تجليا فى عزوفه عن مناصب القضاة، والتى كانت من أرفع مناصب الدولة والمجتمع، وتضمن لصاحبها ثراء وجاها، وحين دعاه يوما خليفة المسلمين "عثمان بن عفان "لشغل منصب القضاة، اعتذر، وألح عثمان، واعتذر ابن عمر، وسأله أمير المؤمنين عثمان بن عفان: أتعصينى ؟! فقال عبد الله بن عمر: كلا، ولكن بلغنى أن القضاة ثلاثة، قاض يقضى

بجهل، فهو فى النار، وقاض يقضى بهوى، فهو فى النار، وقاض يجتهد ويصيب، فهو كفاف، لا وزر ولا أجر، وإنى لسائلك بالله أن تعفينى، وعفاه عثمان..

وهذه فلسفة الزاهدين الأتقياء، ليست مخاصمة للدنيا ومتاعها، ولا سلبية وانعزال عن المجتمع، ولكن خشية أن يزاحم أحد، فيثير فتنة وضغينة، وكان ﷺ يقول: "اللهم إنك تعلم أنه لولا مخافتك لزاحمنا قومنا قريشا فى هذه الدنيا"..هى إذن فلسفة تستند إلى منطق وحجة، وهى مخافة الله ،ومما دفعه إلى رفض عرض منصب الخلافة، وقد عرض عليه مرات وهو يعرض عنه، وفى المرة الأولى بعد مقتل عثمان، قالوا لعبد الله بن عمر: إنك سيد الناس، وابن سيد الناس، فاخرج نبايع لك الناس، ورفض، فقالوا له: لتخرجن، أو لنقتلك على فراشك، فأعاد عليهم قوله الأول، وتكرر العرض مرة أخرى، وتكرر الرفض بعد سنوات، حتى لقيه رجل يوما فقال له: ما أحد شر لأمة محمد منك !! فقال ابن عمر وقد غشيته مشاعر الفزع والخوف، مرتعبا كأن زلزالا شق الأرض من تحته: ولم يا أخى؟ فوالله ما سفكت دماءهم، ولا فرقت جماعتهم، ولا شققت عصاهم!! قال الرجل: إنك لو شئت ما اختلف فيك اثنان.. قال ابن عمر: ما أحب أنها أتتنى (يقصد الخلافة) ورجل يقول لا، وأخر يقول نعم.. ثم مضت سنوات، واستقر الأمر لمعاوية بن أبى سفيان، ثم ابنه يزيد من بعده، ثم ترك معاوية الثانى ابن يزيد الخلافة زاهدا فيها بعد أيام من توليها، فذهب ابن مروان إلى عبد الله بن عمر وهو شيخ مسن، فقال له: هلم يدك نبايع لك، فأنت سيد العرب وابن سيدها.. ورفض ابن عمر ..

كان الزهد والورع والجود، فى هذه الصورة لـصحابى جليل، عاصر تلك الأيام التى أفـاضت فيها الدنيـا على المسلمين بـالأموال والمناصب، واستشرت المطامح والرغبات، ولكنه كان كأبيه الفاروق رضي الله عنه شامخا ثابتا، لا يتخلى عن نهجه وزهده، ولا يمالـىء باطلا.. عدوا للنفاق، صديقا للوضوح.. وكثيرة هى الدروس التـى وصلت إلينا من ابن عمر، وعلى نحو يقطع الشك باليقين..

هذه حقيقة رجال كانوا حول الـرسول ﷺ وحين كانت الحياة تهيب بمن يجدد لهـا صوابها وشبابهـا، ويحرر وجودها، ولذلك فـإن العظمة الباهرة لأولئك الرجال تبدو فى إعجـازها كالأساطير، وبقدر مابذلوا فى سبيل التفوق والعطاء بلا حدود..